AL-MA'RIFAH
Jurnal Budaya, Bahasa, dan Sastra Arab
(Journal of Arabic Culture, Language, and Literature)

Vol. 15, No. 2, October 2018, 247–261
P-ISSN: 1693-5764
E-ISSN: 2597-8551

توقف فهم نصوص الوحي على معرفة العربية:
أمثلة تطبيقية على المستويات الأربع (الصوت والبنية والتركيب والدلالة)

Yaser Alsolami*
King Abdul Aziz University, Saudi Arabia

Dependence of Understanding the Texts of Revelation on Knowledge of Arabic: Practical Examples on the Four Levels (Phonology, Morphology, Syntax, and Semantics)

E-Mail Address
arifaiotaibi@hotmail.com
***Corresponding Author**

Keywords
Arabic phonology;
Arabic morphology;
Arabic syntax;
Arabic semantics;
text of revelation

Abstract
This article reports the significance of Arabic phonology, morphology, syntax, and semantics in understanding the texts of The Holy Quran and hadith of the Prophet Muhammad (peace be upon him). It presents a variety of phonological, morphological, syntactical and semantic examples to illustrate their significance to correctly understand the meaning of the holy texts. It was concluded that it is very vital to put all these four linguistic levels in the consideration to understand the correct interpretation of the texts especially when it comes to teaching Arabic to non-native speakers for teaching Arabic language curricula for non-native speakers to the development and activation.

المقدمة

وقد كان القوم الذين نزل بين أيديهم الوحي يفهمون هذا الكلام، ويرونه في الذروة من البيان والفصاحة، ولكن مع انتشار الإسلام، ودخول الناس في دين الله أفواجًا قادَ ظهور اللحن وفساد الألسنة العلماءَ إلى العناية بلغة العرب؛ حتى يعبد الناس ربهم على بصيرة، ولأن اللغة هي الوسيلة إلى فهم هذه النصوص، ولا طريقَ سواها. وكلما تأخر الزمن اشتدت الحاجة إلى العناية بهذه اللغة، وبما أنَّ المؤتمر يعتني بتعليم العربيّة لغير الناطقين بها، فإني أحببت المشاركة بهذا البحث الذي يصبُّ في صلب المحور الثاني: العربية لغة الإسلام، حتى يقف المتعلمون على أمثلة تبيّن أهميَّة معرفة مستويات الدرس اللغوي في العربية، وأثرها البالغ في فهم نصوص الوحي.

لا يخفى أنَّ الكتاب الخالد القرآن الكريم نزل بهذا اللسان العربيّ المبين، وكفى بذلك بيانًا لمكانة العربيّة ومنزلتها، وقد جاءت النصوص القطعيّةُ بهذا الوصف، وأنَّه جاء على أصفى اللغات وأبينها. وقد جاء الامتنان بإنزال القرآن باللسان العربيّ في عدة مواضع في القرآن الكريم منها، في سورة الشعراء:

Available online at
http://journal.unj.ac.id/unj/index.php/jba/index
DOI: https://doi.org/10.21009/almakrifah.15.02.05

Copyright © 2018 The author
This article is distributed under a
Creative Commons Attribution 4.0 International License

﴿وإِنَّهُ لَتَنزِيلُ رَبِّ العَالَمِينَ * نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الأَمِينُ * عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ المُنذِرِينَ * بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ*﴾ (Quran 26: 192–195) ؛ وفي سورة الزمر: ﴿قُرْآناً عَرَبِيّاً غَيْرَ ذِي عِوَجٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ (Quran 39: 28)؛ وفي سورة فصلت: ﴿كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآناً عَرَبِياً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ (Quran 41: 3).

ولم تخلُ السنة الشريفة من هذا الثناء وبيان المكانة للعربيّة، فقد جاء عن النبي صلى الله عليه وسلم افتخاره بامتلاك نواصي العربية حيث قال: "أنا أفصح العرب مَيْدَ أني من قريش، ونشأت في بني سعد بن بكر" (al-Baghawī, 1983, p. 202). و"مَيْدَ" هنا لغة في "بَيْدَ"، كما قال أبو عبيد القاسم بن سلام (al-Harwī, 1964, p. 139). وقد جاءت رواية أخرى بالباء، وهذا أسلوب عربي يسميه البلاغيون المدح بما يشبه الذم (al-Subkī, 2003, p. 271).

ولم يزل علماء الأمة منذ فجر تاريخ الأمة المجيد ينوِّهون بفضل هذه اللغة الشريفة ويحثون على التعلق منها بسبب. فها نحن نرى الثعالبيَّ يجعل محبتها من لوازم محبة الله ورسوله إذ يقول: "فإن من أحب الله تعالى أحب رسوله محمداً صلى الله عليه وسلم ومن أحبَّ الرسول العربي أحبَّ العرب ومن أحبَّ العرب أحبَّ العربية التي بها نزل أفضل الكتب على أفضل العجم والعرب ومن أحبَّ العربية عُنيَ بها وثابر عليها وصرف همَّته إليها ومن هداه الله للإسلام وشرح صدره للإيمان وآتاه حسن سريرة فيه اعتقد أن محمدًا صلى الله عليه وسلم خير الرسل والإسلام خير الملل والعرب خير الأمم والعربية خير اللغات والألسنة. والإقبال على تفهمها من الديانة إذ هي أداة العلم ومفتاح التفقُّه في الدين وسبب إصلاح المعاش والمعاد" (al-Tha'ālibī, 2002, p. 15).

ومما لا شكَّ فيه أنَّ العربيَّةَ الفصحى وعاء الإسلام، ومستودع ثقافته، ومادة أكثر ما كُتب عنه عبر القرون، وقد انتقلت العربيّة بعد نزول الوحي من لغة جنس إلى لغة دين، فارتبطت بالمعجزة الخالدة فكتب لها الخلود. فالعربية هي الباب الذي يولج منه إلى علم الشريعة واستنباط الأحكام. قال الإمام الشاطبي في الاعتصام: "إن الله عز وجل أنزل القرآن عربيا لا عجمة فيه بمعنى أنه جار في ألفاظه ومعانيه وأساليبه على لسان العرب ....". هذا وإن كان للناس كافة فإن الله جعل جميع الأمم وعامة الالسن في هذا الأمر تبعا للسان العرب وإذا كان كذلك فلا يفهم كتاب الله تعالى إلا من الطريق الذي نزل عليه هو اعتبار ألفاظها ومعانيها وأساليبها (al-Shāṭibī, 1412 H, p. 805). وقد ورد عن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب أنه قال: "تعلموا العربية فإنها تزيد في المروءة" (al-Baghdādī, 1989., p. 25).

شأن القرآن شأنٌ عظيم، فلا يصحّ أن يتكلم فيه من ليس أهلاً لذلك، ومن أولى الأدوات للمفسر والفقيه معرفة العربيَّة، فهذا الإمام مالك يشدِّدُ في ذلك فيقول فيما رواه البيهقيُّ في شعب الإيمان: "إلا أُوتَى برجل غير عالم بلغة العرب يفسر كتاب الله إلا جعلته نكالا" (al-Bayhaqī, 2003, p. 543). ولا أدلَّ عناية علماء الحديث بالنحو من الأخبار التي فيها أنّ عددًا من أهل النحو كان باعثهم لطلب النحو هو علم الحديث ولحنُهم فيه، فصار ذلك دافعًا لتعلُّم النحو كما هو الخبر المشهور عن سيبويه مع شيخه حمّاد بن سلمة (al-Ḥamawī, 1993, p. 1199).

وقد خشي أهل العلم على من يدرس علم الحديث ويشتغل بالرواية دون علمٍ بالعربية أن يدخل في جملة من يكذب على النبيّ. فعن أبي داود السِّنْجِيِّ قال: سمعت الأصمعي يقول: "إن أخْوَف ما أخاف على طالب العلم، إذا لم يعرف النحو أن يدخل في جملة قول النبي صلى الله عليه وسلم: من كذب عليَّ فليتبوّأ مقعده من النار" " لأنه صلى الله عليه وسلم لم يكن يَلحَن، فمهما رويتَ عنه ولحنتَ فيه كذبتَ عليه (Ibn al-Ṣalāḥ, 2002, p. 217). وسأذكر في الصفحات التالية ما يدل على أهمية المستويات الأربع لفهم الوحي.

أ. توقف فهم نصوص الوحي على معرفة المستوى الصوتي في العربيَّة

الأصوات في أي لغة هي أول ما يبدأ به المتعلم لمعرفة هذه اللغة والتمكن منها وإتقانها تحدثًا وكتابةً، وهي الباب الذي يلج منه طالب اللغة. ويعتبر علماء اللغة المحدثون دراسة الأصوات أول خطوة في أي دراسة لغوية، لأنها تتناول أصغر وحدات اللغة، ونعني بها الصوت، الذي هو المادة الخام للكلام الإنساني (ʻUmar, 2003, p. 93).

وقد سبق علماء العربيّة إلى بيان هذا المستوى من الدرس اللغويّ، وشحذوا له هممهم وفرغوا له جهدَهم؛ كما نرى ذلك واضحا بيِّنا في علم التجويد وعلم القراءات. وقد كانت نظرة اللغويين العرب تختلف عن نظرة اللغويين المحدثين في أن اللغويين القدامى لم ينظروا للصوت بمعزل عن مستويات الدرس اللغوي الأخرى؛ بل كانت طريقة معالجتهم لها مندرجة ضمن تلك المستويات: النحوي والصرفي والدلالي، وهذا تراه واضحا في كتب التفسير والنحو والقراءات والصرف والمعجم، فتجد هذه الكتب مليئة بالمباحث الصوتيّة.

فعلى سبيل المثال؛ نجد أنَّ تقسيم الحروف ومخارجها وترتيبها في الجهاز النطقي كان أول ما بدأ به الخليل بن أحمد الفراهيديّ (ت ١٧٠ هـ) في كتابه العين، وذكر فيه عدداً من القوانين الصوتيّة، ومنها أنَّه لا تخلو كلمة رباعية في العربية من حروف الذلاقة: الراء واللام والميم والنون والفاء والباء، المجموعة في قولك: فِرَّ مِن لُبّ (al-Farāhīdī, 2008, p. 47). ونجد أن بعض المباحث الصوتيّة هي ما ختم به سيبويه (ت ١٨٠ هـ) والزجاجي (ت٥٣٣٧) والزمخشري (ت ٥٣٨ هـ) كتبهما، حيث عالجوا موضوع الإدغام، وعدد الحروف ومخارجها وصفاتها وأقسامها، وفصّلوا في ذلك (Sībawayh, 1988, p. 431).

وفي هذا المبحث الموجز سأقف على بعض المواضع التي لمعرفة الصوت فيها تأثير على المعنى، وبدون معرفته تخفى على القارئ بعض المعاني الدقيقة أو الجليلة. أستفتح بما افتتح الله به كتابه، سورة الفاتحة، ففيها بعض الآيات التي ينبغي معرفة أصواتها ونطقها بدقةٍ حتى تفهم على وجهها. ففي قوله تعالى: "اهدنا الصراط المستقيم" يجب أن تكون الهمزة همزة وصل لا همزة قطع، فلا يصح أن تقرأ بقطع الهمزة؛ فإنه-إضافة إلى كونها مخالفةً للقراءة والقراءة سنة متبعة-بهذه القراءة يختلف المعنى، فإذا

قطعت الهمزة كان مصدر الفعل الإهداء مأخوذ من الهدية، والصواب أنها من الهدى والهداية؛ وذلك إنما يكون بكسر الهمزة إذا ابتدأ بها أو وصل بِنيَّةِ الوقف.

والضابط في مثل هذا أنَّ الفعل الماضي إما رباعيّ أو غيره؛ فالرباعيُّ ما كان على أربعة أحرف أصول نحو: أكرمَ وأرسلَ وأقبلَ وأدبرَ ونحوه. فالأمر منه بفتح الهمزة نحو: أَكْرِمْ، أَرسِلْ، أَقبلْ، أَدْبِرْ. وغير الرباعيّ إمّا ثلاثيّ أو غيره، فالثلاثيّ همزة الأمرِ مِنْه على حركَةِ عينِ مضارعه إن كانت مضمومة، نحو: يدخُل ويخرُج ويكتُب. وإن كانت مكسورة أو مفتوحة كُسِرت همزة الأمر منه نحو: يضرِب، ويعلَم، فتقول: اِضرِب، اِعْلَم، وأمّا غير الثلاثي فهو الخماسيّ والسداسيّ، نحو: استغفر، واجتمع، فالأمر منه مكسور الهمزة، فتقول: اِستغفِر، اِجتمِع (al-Ṭūfī, 2013, p. 341). وهذا كلُّه إذا ابتدئ بالهمزة أو وُصِل بنيّةِ الوقف أمّا إذا وصل بنيّةِ الوصل فإن الهمزة تسقط كما هو معلوم؛ لأن همزة الوصل جيء بها للنطق بالساكن، فتسقط في حال الوصل.

ومن المواضع في سورة الفاتحة التي يؤثِر اختلاف الصوت ويتوقف فهم المعنى على معرفة الأصوات في العربيّة واختصاص كلٍّ منها بمعنى معينَّ قوله تعالى: "أنعمتَ عليهم"، فالتاء مفتوحة لأنها للمخاطب، وهو الله جلَّ في علاه؛ وضَمُّها يعني أنَّ العبدَ هو الـمُنعِم، وكسرها فيه مخاطبةُ البارئ سبحانه بلفظ التأنيث وكلاهما لا يجوز؛ بل تبطُلُ الصلاةُ بهما لأنَّ اللحن هنا مُحِيلٌ للمعنى تمامًا ولا يمكن توجيهه بوجه من الوجوه (al-Zuḥaylī, 1997, p. 1037). ومن المواضع فيها أيضًا ما جاء بحرف الضاد؛ كقوله تعالى: "غير المغضوب عليهم ولا الضالين". فهذه الآية فيها كلمتان بهذا الحرف، وهو حرف يلتبس بحرف آخر وهو حرف الظاء، وهي مسألة يكثر ورودها والخطأ فيها، وللعلماء في وصف هذا الصوت كلام، وهذا التشابه يوقع كثيراً من أهل العربية وغيرهم ممن أراد تعلُّمَها في لَبْسٍ، ممّا دعا بعض العلماء إلى التأليف في التفريق بين هذين الحرفين كما صنع الإمام أبو عمرو الداني في كتابه (الفرق بين الضاد والظاء في كتاب الله عز وجل وفي المشهور من الكلام) وغيره من الأئمة، لخطر هذا الموضوع وأهميّته.

وأمَّا وصف الصوتين (الظاء والضاد) فبينَهما تشابه في الصفة واختلاف في المخرج والاستطالة؛ فالضاد حرف مستطيل يخرج من حافّةِ اللسانِ من أطرافها مما يلي الأضراس، فمن الناس من يخرجها من الجانب الأيمن ومنهم من يخرجها من الجانب الأيسر، وهو مخرج خاصٌّ بها؛ غير أنّ اللام تخرج من حافّة اللسان من أدناها إلى ما يلي الثنايا. وأمّا الظاء فمخرجها ما بين طرف اللّسان وأطراف الثّنايا العليا، خارجا طرفه قليلا. ويشركُها في المخرج الذال والثاء. وكلا الصوتين مجهور رِخوٌ مُطبقٌ مُستَعلٍ (Ibn Jinnī, 1993, pp. 225–237). وآتي هنا للحديث عن هاتين الكلمتين في الفاتحة، ثم أجوزُ إلى غيرها. فإبدال الضاد ظاء في "المغضوب" لايلتبس بكلمةٍ أخرى؛ فليس في اللغة غظب، ولذا ذكر بعض العلماء أنَّ المقصود هنا واضح وغير ملبس، والخطأ في نطق الصوت هنا لا يحيل المعنى (al-Ṭūfī, 2013, p. 343).

وأمّا في قوله تعالى: "ولا الضالّين" فنطقُ الضادِ ظاءً هنا يوقع في لَبْس؛ إذ يلتبِسُ "ضلّ" بـ"ظلَّ"، وحكم بعض العلماء ببطلان صلاة من قرأ "ولا الظالين"؛ لإخلاله بالمعنى، لأنّ الضلال ضدّ الهدى، ومن

قرأها بالظاء الخالصة فقد حرَّفَ وأحال المعنى؛ لأن ذلك من قولهم: "ظلَّ يفعله كذا" إذا فعله نهارًا، فيكون المعنى: "غير المغضوبِ عليهم ولا الفاعلين نهارًا"، والمعنى خلاف ذلك (al-Ṭūfī, 2013, p. 342).

ويلحق بالتمييز بين الظاء والضاد مواضع كثيرة في كتاب الله، ومنها: قوله تعالى في سورة القيامة: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ * إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ *﴾ (Quran 75: 22–23). فالرفق بين النظرة والنضرة كبير؛ فناظرة اسم فاعل من نظر ينظر، ونَاضِرة من النُّضْرة وهي النعمة والجمال وحُسْن البشرة، كما جاء في سورة الغاشية: ﴿وجوه يومئذ ناعمة﴾ (Quran 88: 8)، أَيْ: "وُجُوهُ الْمُؤْمِنِينَ مُشْرِقَةٌ حَسَنَةٌ نَاعِمَةٌ، يُقَالُ: نَضَرَهُمُ اللَّهُ يَنْضُرُهُمْ نَضْرَةً وَنَضَارَةً وَهُوَ الْإِشْرَاقُ وَالْعَيْشُ وَالْغِنَى" (al-Qurṭubī, 1964, p. 107). ومما يدخل في أهمية المستوى الصوتي وتوقفِ فهم المعنى عليه معرفةُ أصول الكلمة التي اشتقت منها، ومعرفة ما لو كانت بعض الحروف مبدلةً من أخرى والمعنى واحد، وما لو كانت هذه لغة لقبيلة من قبائل العرب ولها دلالةٌ أخرى ليست عند غيرها؛ كالهمز والتسهيل أو التخفيف.

فقد كانت لغة النبي ʻتسهيل الهمز وتخفيفها، وكان الهمز في غير قريش كقبيلة جهينة، ومن طريف الأخبار المرويَّةِ في تداخل الأصول أنّه جاء قوم بأسير إلى النّبي صلى الله عليه وسلم وهو يرعد فقال: "أَدْفُوه، فقتلوه. أراد عليه السلام: أَدْفِئوه، ولغته ترك الْهمز وذهبوا هم إلى لغتهم: أَدْفُوه، أي: اقْتُلُوهُ. وليس في لغته عليه الصلاة والسلام الْهَمْز. فوداه رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولو كان يريد به معنى القتل لقال: دافُوه أو دافُّوه بالتثقيل، يقال: دافيت الأسير ودافففته إذا أجهزت عليه (Ibn Durayd, 2005, p. 673)

فانظر–رعاك الله–إلى أهمية معرفة الأصوات لمعرفة المعنى كيف أدى اختلاف لغته وعدم معرفتهم بلغة رسول الله عليه الصلاة والسلام إلى هذا الفهم المخالف لمقصوده عليه الصلاة والسلام ودفعهم إلى قتله. هذا في المعاني الجليلة للألفاظ، وأمَّا المعاني الدقيقة وأثر معرفة الصوت وصفته على المعنى واختيار الصوت المناسب للمعنى فهذا باب لطيف شريف نبَّه إليه أبو الفتح ابن جني (ت ٣٩٢ هـ) في كتابه الخصائص في بابين هما: تصاقب الألفاظ لتصاقب المعاني، وإمساس الألفاظ أشباه المعاني.

ب. توقف فهم نصوص الوحي على معرفة البنية في العربية

مبحث دلالات الأبنية شريف لطيف، وموضوعه من الأهميّة بمكان، فالتمييز بين الاسم والفعل، وبين أبنية الأفعال أنفسها، وكذلك بين أبينة الأسماء لا بدَّ أن يوليَه من يريد فهم نصوص الوحي عناية خاصّة، حتى يقف على المعاني الصحيحة لهذه النصوص الشريفة. ومن مظاهر توقف الدلالة على معرفة العربية وأمثلتها ما يلي:

١. التفريق بين الاسم والفعل

الفرق بين الاسم والفعل في الدلالة له أكثر من وجه؛ فالاسم ما دل على معنى في ذاته غير مرتبط بزمن، والفعل ما دل على معنى مرتبط بزمن (تعريف الاسم والفعل في جامع الدروس العربيّة (al-Ghalāyaynī, 1993, p. 9). وارتباط الفعل بالزمن، وخلوّ الاسم من هذا الارتباط دلّ النحاة والبيانيين على فرق معنويّ محوريّ بين دلالة الاسم ودلالة الفعل، وقادهم إلى تأمل النصوص واستقرائها، وجعلهم يصلون إلى هذه القاعدة: "الاسم يفيد الثبوت، والفعل يفيد التجدد والحدوث".

وترى إمام البلاغيين عبد القاهر الجرجانيّ (ت ٤٧١ هـ) يزيد هذا بيانا فيقول: "فإذا قلتَ: "زيدٌ منطلقٌ"، فقد أثبتَّ الانطلاق فعلا له، من غيرِ أن تجعله يتجدَّد ويحدث منه شيئا فشيئا، بل يكون المعنى فيه كالمعنى في قولك: "زيد طويل"، و "عمرو قصير"؛ فكما لا تقصد ههنا إلى أن تجعل الطول أو القِصَر يتجدّد ويحدث، بل توجبهما وتثبتهما فقط، وتقضي بوجودهما على الإطلاق، كذلك لا تتعرّض في قولك: "زيدٌ منطلقٌ" لأكثر من إثباته لزيد. وأمّا الفعل، فإنه يُقصَد فيه إلى ذلك، فإذا قلتَ: "زيدٌ ها هو ذا ينطلقُ"، فقد زعمتَ أنّ الانطلاق يقع منه جزءا فجزءا، وجعلتَه يزاوله ويُزَجِّيه" (al-Jurjānī, 2008, p. 174).

واستدلّ على هذا ببعض الشواهد منها قوله تعالى في سورة الكهف: ﴿... وَكَلْبُهُمْ بَاسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِالْوَصِيدِ ....﴾ (Quran 18: 18). وبيّن أنّ الفعل ممتنعٌ هنا، ولا يؤدي المقصود أن تقول: "يبسط ذراعيه"؛ لأنّ الفعل يقتضي مزاولة وتجدّدَ الصفةِ في الوقت، ويقتضي الاسم ثبوت الصفة وحصولها من غير أن يكون هناك مزاولة وتَزْجية فعلٍ، ومعنى يحدث شيئا فشيئا (al-Jurjānī, 2008, p. 175).

فإذا وضح هذا الأمر فسيعرف من يقرأ القرآن الكريم معانيَ النصوص التي جاء التعبير فيها بأحد النوعين دون الآخر. فحين يقرأ القارئ قوله تعالى في سورة الملك: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَافَّاتٍ وَيَقْبِضْنَ ....﴾ (Quran 67: 19)، ويسأل نفسه: كيف جاء العطف على الاسم(صافات) بالفعل (يقبضن)، ولم يشاكل بين الكلمتين في النوع فيُجعلا اسمين أو فعلين؟ أُجِيبَ-انطلاقا من هذا المعنى: أنّ الأصل في الطيران صفّ الأجنحة والقبض طارئ، فكان الصفّ بصيغة الاسميّة للدلالة على الثبوت، والقبض بصيغة الفعليّة للدلالة على التجدد والحدوث. والأمثلة الدالة على هذا المعنى كثيرة في كتاب الله تعالى (al-Sāmarrā'ī, 2007, p. 11).

٢. معاني صيغ الأفعال

معرفة معاني صيغ الأفعال من الأهميّة بمكان لاسيّما من يريد فهم القرآن الكريم والسنَّة المطهَّرة. ويقع سوء الفهم لكثير من الناس بسبب جهلهم بهذا الباب، ويقودهم هذا إلى تأويلات فاسدة. وليس الغرض من هذا البحث الاستقصاء لكل معاني الصيغ، ولكنها أمثلة تبيّن خطر هذا الموضوع ومكانته. فعلى سبيل المثال:

أ) صيغة "فاعَلَ": يشتهر عند كثير من الناس أنّه يفيد المشاركة، وهذا صحيح ولكنه ليس المعنى الوحيد الذي يرد به هذا البناء، بل يأتي هذا البناء لمعانٍ أُخَر (ʻUḍaymah, 2004, p. 444). فمن هذه المعاني أنَّه يدلُّ على معنى الفعل المجرد "فعَل"، وله أمثلة كثيرة في القرآن؛ منها قوله تعالى في سورة المنافقون: ﴿... قاتَلَهُمُ الله أنىّ يؤفكون﴾ (Quran 63: 4). فالفعل هنا لا يدلُّ على المشاركة بل يدلُّ على معنى الفعل، وهو دعاء عليهم وهو طلب من ذاته أن يلعنهم، أو تعليم للمؤمنين أن يدعوا عليهم بذلك (al-Bayḍāwī, n-d., p. 214). ومنه أيضًا قوله تعالى في سورة الحج: ﴿إنّ الله يدافع عن الذين آمنوا ....﴾ (Quran 22: 38). فيدافع هنا بمعنى دفع (ʻUḍaymah, 2004, p. 444).

ب) صيغة "استفعل": من المقرر عند أهل اللغة أن الهمزة والسين والتاء تأتي لمعانٍ كالطلب حقيقةً مثل: استغفرت الله، أو مجازًا مثل: استخرجت الذهب، وللصيرورة حقيقةً مثل: استحجر الطينُ، أو مجازًا مثل: إن البغاث بأرضنا يستنسرُ، وتأتي لما يدلُّ على مصادفة الشيء على صفةٍ؛ كقولك: استظرفتُ فلانًا، أي: صادفته ظريفًا، وقد تأتي بمعنى أفعل، مثل: أجاب واستجاب (al-Ḥamlāwī, 2001, p. 34). وقد استثمر هذه المعاني أهل التفسير والإعراب في توجيه ما أشكل عليهم. فقد جاء في قوله تعالى: ﴿... هل تستطيعُ ربَّك ....﴾ (Quran 5: 112) قراءتان: بالياء وهي قراءة الجمهور، وقرأ الكسائيُّ بالتاء ونصب "ربَّك". واختلفت آراء المفسرين والمعربين في توجيه هذه الآية، ومن لطيف ما وجَّهوا به المعنى أن يكون المعنى على قراءة الكسائي: هل تطلب طاعة ربك، فعبرَّ بالاستطاعة عن طلب الطاعة فتكون الهمزة والسين والتاء للطلب (al-Zajjāj, 1988, p. 220). وقل مثل ذلك في غيرها من صيغ الزوائد التي قد ترد بأكثر من معنى، ويحتاج من يريد أن يتعلم العربيّةَ ويحسن التعبير بها ويفهم نصوص الوحي الإلمام بها، وكلُّ ذلك مسطور في كتب الصرف واللغة.

٣. بناء الفعل للفاعل وللمفعول

بناء الفعل للفاعل وللمفعول مما يؤثر كثيراً في فهم المعنى، وهذا مما يجب على طالب العربيّةِ إدراكه وفهمه؛ لأنه من الأهميَّةِ بمكان. وهو على سهولته ويسره فإن بعض الناس يقصِّر فيه، فحين يقرأ الإنسان القرآن وهو غافلٌ عن هذا الأمر؛ فإنَّ خطأَه يوقع في مشكلاتٍ ومصائب، كما حصلَ لذلك الإعرابيّ الذي دخل المسجدَ يومًا فسمع قارئًا يقرأ قولَه تعالى في سورة البقرة: ﴿ولا تُنكِحوا المشركين حتّى يؤمنوا ....﴾ (Quran 2: 221) بفتح التاء وبناء الفعل للفاعل، فقال الأعرابيُّ: "سبحان الله! هذا قبل الإسلام قبيح، فكيف بعده؟ فقيل له: إنه لحَنَ، والصواب "تُنكِحوا" بضمّ التاء، فقال: قبّحه الله، لا تجعلوه إماما؛ فإنّه يُحِلّ ما حرّم الله (al-Ṭūfī, 2013, p. 353).

فانظر كيف أوقع هذا الخطأ في البناء في هذه الكارثة في فهم القرآن الكريم (والكلام في هذا الباب طويلٌ، وقد حذفت كثيراً خشية الإطالة، وذكرت ما يدلُّ على غيره). ومما يدخلُ في هذا ما يحتمل البناء للفاعل وللمفعول كما في قوله تعالى في سورة البقرة: ﴿... ولا يُضارَّ كاتِبٌ ولا شهيدٌ ....﴾ (Quran 2: 282)؛

فإنَّ اللفظ محتملٌ للأمرين معًا لوجود الإدغام؛ فإنه يحتمل: أن يكون المقصود: ولا يضارِرْ؛ فيكون مبنيًا للفاعل، ويحتمل أن يكون المقصود: ولا يُضارَرْ، فيكون مبنيًا للمفعول ويعرب ما بعده نائبًا عن الفاعل (al-Andalusī, 2001, p. 385).

٤. بناء اسم الفاعل من فَعَل وأفعل

من المقرر عند أهل التصريف والنحو أنّ بناء اسم الفاعل من الثلاثي يكون على زنة فاعل؛ نحو: كتب، اسم الفاعل منه: كاتب، وما زاد على الثلاثي فيكون بزيادة ميم مضمومة في أوله مع كسر ما قبل الآخر؛ نحو: أكرم، اسم الفاعل منه: مُكرِم. هذا من حيث اللفظ، وأما من حيث المعنى فهل الزيادة على الثلاثي المجرد مؤثرة في المعنى؟ ولأهل اللغة كلمة مشهورة: "الزيادة في المبنى تدل غالبا على الزيادة في المعنى". وفي هذا يقول ابن جني: "إذا كانت الألفاظ أدلة المعاني، ثم زيد فيها شيء؛ أوجبت القسمة له زيادة المعنى به (Ibn Jinnī, 1990, p. 271).

وفي هذا الباب جاءت كلمتان في القرآن، الأولى بأن الله يحبهم، والثانية بأنهم من حطب جهنّم، والمادة واحدة، فما الفرق بينهما؟ الأولى قوله تعالى في سورة المائدة، والحجرات، والممتحنة: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ (Quran 5: 42; Quran 49: 9; Quran 60: 8). والثانية قوله تعالى في سورة الجن: ﴿وَأَمَّا الْقَاسِطُونَ فَكَانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَبًا﴾ (Quran 72: 15). الفرق بينهما أنَّ الأولى اسم فاعل من الفعل: أَقْسَط، إذا عدل، فهو مُقْسِط. والثانية من اسم فاعل من الفعل: قَسَط، إذا جار وظلم، وعدل عن الحق (al-Harwī, 1990, p. 437). وهذه الهمزة يسميها ابن جني "همزة السلب"، وهي التي تسلب الفعل معناه، كما تقول: أعجمت الكتاب: إذا أزلت عجمته (Ibn Jinnī, 1990, p. 77).

ج. توقف فهم نصوص الوحي على معرفة التركيب في العربيّة

معرفة علم النحو أشرف علوم العربيّة بعد معرفة الغريبين؛ وذلك لأنه به يعرف المسلم مقاصد الشرع؛ فيعرف الفاعل من المفعول، وبه يميز الصفة من الحال، والنعت من البدل، وهلُمّ جرا. وقد كانت بواكير التصنيف في علوم القرآن التي وصلت إلينا متعلقة بهذا العلم، كما نرى ذلك في كتب إعراب القرآن. والتدليل على أهميّته وتوقف فهم النصوص الشريفة على معرفته أكثر من أن يحاط به، ولكني سأذكر بعض الأمثلة التي تبيّن هذه الأهميّة، فليس من أهداف البحث الاستقصاء، وإنما ذِكْرُ الأمثلة حتى يعرف شُداةُ الطلبةِ شرفَ هذا العلم فيأخذوا منه بحظٍّ وافر.

ومن طريف ما يروى في فضل النحو ما روي عن الكسائيّ إذ قال: " اجتمعت وأبو يوسف القاضي عند هارون الرشيد فجعل أبو يوسف يذم النحو ويقول: ما النحو؟ فقلت -وأردت أن أعلمه فضل النحو-: ما تقول في رجل قال لرجل: أنا قاتلٌ غلامَك، وقال له آخر: أنا قاتلُ غلامِك أيهما كنت تأخذ به؟ قال: آخذهما جميعا. فقال له هارون: أخطأت. وكان له علم بالعربية، فاستحيا. وقال: كيف ذلك؟ فقال: الذي يؤخذ بقتل الغلام هو الذي قال: أنا قاتلُ غلامِك بالإضافة، لأنه فعل ماضٍ فأما الذي قال: أنا قاتلٌ غلامَك بلا إضافة

فإنه لا يؤخذ لأنه مستقبل، لم يكن بعد كما قال الله تعالى في سورة الكهف: ﴿ولا تقولن لشيءٍ إني فاعل ذلك غدا * إلا أن يشاء الله﴾ (Quran 18: 23–24).

فلولا أن التنوين مستقبل ما جاز فيه غدًا (al-Suyūṭī, n-d., p. 211). فهذه الدلالة في اسم الفاعل خفيت على الفقيه الكبير، وعرَّفه إيّاها الكسائيّ، فوجود التنوين يصرفُ اسم الفاعل من احتمال الدلالة على أحد الأزمنة إلى تأكُّد دلالته على المستقبل. ولهذا نظائر كثيرةٌ في كتاب الله تعالى، منها قوله تعالى في سورة البقرة: ﴿... إنّي جاعلٌ في الأرض خليفة ....﴾ (Quran 2: 30)، أي: سأجعل، وقوله تعالى في سورة ص: ﴿... إني خالقٌ بشرًا من طين﴾ (Quran 38: 17)، أي: سأخلق. وغيرها من الآيات.

١. حروف المعاني

من المعلوم أنَّ الحروف في العربيّة تنقسم إلى قسمين: حروف مباني وحروف معاني؛ فحروف المباني هي التي تبنى منها الألفاظ، وهي الحروف الهجائية المعروفة، وحروف المعاني هي: الكلمات التي تدلُّ على معانٍ في غيرها، وليس لها معنى في ذاتها. وتنقسم إلى ثلاثة أقسام: حروف مختصة بالأسماء وحروف مختصة بالأفعال وحروف مشتركة بين الأسماء والأفعال (في كتب حروف المعاني؛ ككتاب الجنى الداني للمراديّ، وكتاب رصف المباني للمالقيّ). ومعرفة حروف المعاني له أثر كبير جدًّا في استنباط المعاني والأحكام الشرعيّة من النصوص، ولا يمكن لمشتغلٍ بالفقه أن يتمكن منه أو يضبطَ مسائلَه ويعرف أدلَّتَها وهو يجهل هذا الباب من أبواب النحو؛ بل إنّه سببٌ للخلاف في كثير من الأحكام والاستنباطات التي استنبطها العلماء من نصوص الوحي.

وهاك بعض الأمثلة في آية الوضوء ورد قوله تعالى سورة المائدة: ﴿... وامسحوا برؤوسِكم ....﴾ (Quran 5: 16)، قولان مشهوران لأهل العلم في المجزئ من مسح الرأس، هل يمسح كلُّ الرأس، أو بعضه؟ وأصل الخلاف هو في معنى الباء هنا، هل هي للإلصاق أو للتبعيض؟ فمن قال إنها للإلصاق قال بوجوب مسح الرأس كله، ومن قال إنها للتبعيض أجاز مسحَ بعض الرأس، وقال إنَّ مَسْحَه مجزئٌ. وقبل ذلك هل تفيد الباء في اللغة التبعيض أو لا؟ فقد ذهب الجمهور إلى خلاف ذلك، وذهب بعض العلماء إلى ورود هذا المعنى للباء عن العرب (al-Murādī, 1992, p. 44). ومما قاله الشافعية ليقوُّوا مذهبهم: إنّ دخول الباء على فعل متعدّ بنفسه يفيد التبعيض ولا معنى لها غير ذلك. وقد خالفهم الجمهور وأوردوا عليهم أدلّة كثيرة، وليس المقام مقام بسطها ولا ترجيح أحد القولين، وإنما المقصود بيان أثر حرف المعنى (الباء) هنا في الاختلاف واستنباط الحكم في مسألةٍ مشهورة كهذه (al-Ṭūfī, 2013, p. 387).

٢. معنى "إلى"، وهل الغاية داخلةٌ في الـمُغَيّى أو لا؟

وهذه مسألة فقهية أساسها لغويّ، وهي: هل يدخل ما بعد إلى فيما قبلها في قوله تعالى في سورة المائدة: ﴿... وأيديَكم إلى المرافق ....﴾ (Quran 5: 6). فالمقرر المشهور أنّ "إلى" تفيد انتهاء الغاية الزمانية

والمكانية، وهو أصل معانيها، وهو المعنى الوحيد لها عند البصريين وما سواه متأوَّل (al-Murādī, 1992, p. 385). ووقع الخلاف في دخول ما بعدها في حكم ما قبلها، وقد ذهب الجمهور إلى دخول ما بعدها فيما قبلها في وجوب الغسل، واستدلّوا على ذلك بأدلَّة منها أن "إلى" تأتي بمعنى "مع" كما في قوله تعالى في سورة هود: ﴿... ويزدكم قوةً إلى قوتكم ....﴾ (Quran 11: 52)، أي: معها، ولها نظائر.

وفصّل المبرّد في ذلك فقال: "إن كان ما بعد "إلى" من جنس ما قبلها اقتضت تناولَه، نحو: بعتك هذا الثوب من هذا الطرف إلى هذا الطرف. وإن لم يكن من جنسه لم تتناوله، كالليل مع النهار (al-Ṭūfī, 2013, p. 409)، يقصد في قوله تعالى سورة البقرة: ﴿... ثم أتمّوا الصيام إلى الليل ....﴾ (Quran 2: 187). وذهب بعض العلماء إلى أنها غير داخلة تمسُّكًا بمعناها الأصليّ وهو انتهاء الغاية، ومنشأ الخلاف كما رأيت هو في معنى (إلى) وتنازعهم حولها (al-Ṭūfī, 1434 H, p. 407). فهذان مثالان على أثر حروف المعاني على الاستنباط والأحكام الشرعيّة، وجاء عن ابن عبّاس في بيان تأثيرها على المعنى أنه قال: "الحمد للّه الّذي قال: ﴿عَنْ صَلاتِهِمْ سَاهُونَ﴾ ولم يقل: ﴿فِي صَلاتِهِمْ﴾ (al-Suyūṭī, n-d., 167).

٣. أنواع "ما" في النحو وعلاقتها بالمعنى والإعراب

من المباحث المهمة في ارتباط معرفة النحو بفهم المعنى في نصوص الوحي تحديد نوع ما ووظيفتها النحويّة، فمن المعلوم أن لها معاني مختلفة، فقد تأتي اسمًا موصولًا، وقد تأتي شرطيةً وقد تأتي نافية مهملة وتأتي نافية عاملة عمل ليس (وهي الحجازية)، وتأتي مصدريّة، وتأتي تعجبيّةً، وهذا التنوع له أثره البالغ في فهم المعنى. ففي قوله تعالى سورة الذاريات: ﴿كانوا قليلًا من الليل ما يهجعون﴾ (Quran 51: 17)، السياق سياق مدح وذكر لصفات هؤلاء المتقين الذين بوَّأهم الله هذه المنزلة في جنات النعيم، فما نوع (ما) الذي يتوقف عليه فهم هذا الوصف لهم؟ هل هي نافية هنا؟ فيكون المعنى: أنهم لم يكونوا ينامون قليلًا من الليل بل كثيراً، وكان قيامهم من الليل قليلًا.

وهذا القول مرويٌّ عن ابن عباس وقال: "إنهم لم تكن تمضي عليهم ليلة إلّا يأخذون منها ولو شيئا (Ibn Kathīr, 1999, p. 417). وذهب جمهور النحويين-وهو اختيار الطبري-إلى أنّ "ما" هنا مصدريّة؛ والمعنى: كانوا قليلا من الليل هجوعهم. والمصدر المنسبك من "ما" و"يهجعون" فاعل بالصفة المشبّهة (قليلًا) (al-Andalusī, 2001, p. 175). فكما ترى أثّر معنى "ما" ووظيفتها النحويّة في المعنى والاستنباط هذا الأثر الذي رأيت.

ومثال آخر في أثر نوع "ما" ووظيفتها النحويّة في المعنى مسألة عظيمة في المسائل الخلافية الكبرى بين أهل السنة والشيعة، وذلك حين جاءت السيدة فاطمة عليه السلام إلى أبي بكر الصديق تطلب إرثها عن أبيها في فدك وخيبر فلم يعطها؛ لأنه سمع النبيَّ يقول: "لا نورَث، ما تركنا صدقة" (صحيح البخاري: ٣٠٩٢)، فحمل الشيعة (ما) على أنها نافيةٌ، وبذلك يكون المعنى: أن النبي لم يترك بعده صدقة، وما بقي من ماله بعد وفاته فهو لأهل بيته، ويروون "صدقةً" بالنصب على أنها مفعول به لتركنا. وأهل السنة يحملون "ما" على أنها موصولة، فهي بمعنى الذي؛ فيكون المعنى: الذي تركناه صدقة، فتعرب "صدقةٌ"

خبرا للاسم الموصول (ما)، ولذا فهي مرفوعة، والمفعول به محذوف وهو الضمير العائد على الموصول، وحذف العائد كثير في لغة العرب، كما قال ابن مالك في الخلاصة:

..... * والحـذف عنـدهم كثـير منجـلِ
في عائدٍ متّصلٍ إن انتصب * بفعلٍ او وصفٍ كمن نرجو يهب

وله شواهد كثيرة في كتاب الله تعالى وفصيح الكلام. وما ذهب إليه أهل السنة هو الصواب لأدلَّةٍ كثيرة؛ منها: أن صدر الحديث يدلُّ على ذلك، وهو قوله ʻ: "لانورث". وغيرها من الأدلَّة القطعيّة (al-Ṭūfī, 2013, p. 361). فهذه بعض الأمثلة التي تدلُّ على شرف علم النحو وأهميته، وتوقف فهم معاني النصوص على ضبطه وإتقانه، وأنَّ كثيراً من الخلل يدخل على طالب العلم من جهله بهذا العلم الشريف.

د. توقف فهم نصوص الوحي على معرفة المستوى الدلالي في العربيّة

معرفة معاني الألفاظ لنصوص الوحي هو أشرف علوم العربيَّةِ، ولأهميَّته فقد صنَّف العلماء في بيانه عدداً من المصنفات، وتنوَّعت ميادين الدراسة فيه، فمِن بيانٍ لغريبه، وإيضاحٍ لمشكله، وعَدٍّ لأساليبه، وبيانٍ للمشترك والمتضاد، والمترادف، ودراسةٍ لدلالات الألفاظ من حيث العموم والخصوص، والحقيقة والمجاز، والمطلق والمقيَّد. ومن يطالع كتب أصول الفقه يجد كثيراً منها يبدأ ببيان دلالات الألفاظ من هذه الجهات السابقة وغيرها؛ لتوقف فهم نصوص الوحي على معرفة هذا المستوى من مستويات اللغة؛ ولتمكن العجمة بعد عصور الاحتجاج وفساد السليقة. وهاكَ بعض الأمثلة:

١. معرفة الغريب

الألفاظ تنقسم إلى قسمين من حيث الغرابة والوضوح، وذلك بالنسبة إلى أهل اللغة، وأما من عداهم فكل الألفاظ غريبة بالنسبة إليه. واللفظ الغريب هو: ما يعرفه العالم الـمُبرِّزُ والأعرابيُّ القُحُّ، ويخفى على غيرهم (al-Suyūṭī, 2009, p. 174). وهذا النوع يكاد أن يكون أول العلوم اللغويّة ظهورًا، وقد خفي على كثير من الصحابة، بعض المعاني، وليس ذلك غريبًا فاللغة واسعة ولا يحيط بها إلا نبيّ كما نقل عن الشافعيّ. ويبرز في هذا الميدان حبر الأمة وترجمان القرآن عبد الله بن عباس، فقد عني بتفسير الألفاظ الغريبة في القرآن الكريم كما في الأخبار المرويّة عنه، وكذلك سؤالات نافع بن الأزرق له وسأذكر طرفًا منها بعد قليل. وقد عُنِي المفسرون بهذا العلم عناية فائقة، وصرفوا هممهم إلى معرفته وحفظ معاني الألفاظ الغريبة، بل جعلوا معرفة هذا العلم من شروط المفسر التي يجب توافرها فيه حتى يمكنه أن يفسر كلام الله عز وجل؛ فالصحابة وهم العرب العرباء، وهم في الذروة من الفصاحة والبيان قد خفيت عليهم كلمات لم يعرفوا معانيها، فكيف بغيرهم؟ (al-Suyūṭī, n-d., p. 4).

وهاكَ بعض الأمثلة على مفردات هذا العلم. معنى "فاطر"؛ ذكر ابن عباس أنه لم يكن يعرف ما معنى فاطر في قوله تعالى سورة فاطر: ﴿... فاطر السماوات والأرض ....﴾ (Quran 35: 1) حتى سمع أعرابيين

يختصمان في بئر فَقَالَ أَحَدُهُمَا: أَنَا فَطَرْتُهَا، أي: أَنَا ابْتَدَأْتُهَا (al-Suyūṭī, n-d., p. 4). وكان لابن عباس أخبار مع نافع بن الأزرق-أحد رؤوس الخوارج-الذي جاءه يسأله أسئلة عن تفسير القرآن عرفت بعد ذلك بسؤالات نافع بن الأزرق، فكان يجيبه عن كل واحدة منها ببيت من شعر العرب، ومنها:

أ) أنه سأله عن معنى قوله تعالى سورة المائدة: ﴿... وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ ....﴾ (Quran 5: 35). فقال ابن عباس: الحاجة. قال: أو تعرف العرب ذلك؟ قال: نعم، أما سمعت عنترة العبسيّ وهو يقول: إنّ الرّجالَ لهم إليك وسيلةٌ...إن يأخذوك تَكَحَّلي وتَخَضَّبِي (al-Suyūṭī, n-d., p. 69).

ب) ومنها أنه سأله عن قول الله عزّ وجلّ في سورة الحج: ﴿... الْقَانِعَ وَالْمُعْتَرَّ ....﴾ (Quran 22: 36). فقال: القانع: الذي يقنع بما يعطي. والمعتر: الذي يعترض الأبواب. قال: وهل تعرف العرب ذلك؟ قال: نعم، أما سمعت الشاعر وهو يقول: على مُكْثِريهم حقُّ مَنْ يعتريهم...وعند المُقِلِّين السّماحةُ والبذلُ (al-Suyūṭī, n-d., p. 72)، والبيت لزهير بن أبي سلمى في الشعر والشعراء (Ibn Qutaybah, 1423 H, p. 82).

ج) وسأله عن قول الله عزّ وجلّ في سورة الإنسان: ﴿... أَمْشَاجٍ نَبْتَلِيهِ ....﴾ (Quran 76: 2)، فقال: اختلاط ماء الرجل وماء المرأة إذا وقعا في الرّحم. قال: وهل تعرف العرب ذلك؟ قال: نعم، أما سمعت أبا ذؤيب وهو يقول: كأنّ الرّيش والفُوقَينِ مِنه ... خلاف النّصل سِيطَ به مَشِيج (al-Suyūṭī, n-d., p. 74)، والبيت في ديوان الهذليين (al-Shanqīṭī, 1965, 103)، وغيرها من المسائل، ومع كل سؤال يجيبه ببيت من شعر العرب، فدلَّ ذلك على سعة علمه، واستجابة الله عز وجلّ دعاء نبيه 'لابن عباس بأن يفقهه الله في الدين ويعلمه التأويل، وعلى أمر آخر هو أنَّ القرآن الكريم لا يمكن أن يفسر بغير لغة العرب التي نزل هذا الكتاب بها، ومن يتقحّم هذا الميدان جاهلا باللسان العربيّ فهو يخبط خبط عشواء.

٢. معرفة المشترك اللفظي والترادف

الأصل في أي لغة أن يوضع اللفظ الواحد لمعنىٍ واحد؛ ولكن هذا الأصل قد يتخلَّف لأسباب متعلقة بظروف اللغة ونشأتها، فيوضع اللفظ الواحد لمعنيين مختلفين. قال سيبويه:" اعلم أنّ من كلامِهم اختلاف اللفظينِ لاختلاف المعنيينِ، واختلافَ اللفظينِ والمعنى واحدٌ، واتفاق اللفظين واختلاف المعنيين" (Sībawayh, 1988, p. 24). فالأكثر هو دلالة كل لفظ على معنى مختلف، وأما اختلاف اللفظين والمعنى واحد فهو ما اصطلح عليه بالترادف، وأما اتفاق اللفظين واختلاف المعنيين فهو ما اصطلح عليه بالمشترك اللفظي. وكل واحد من هذين له أثره في فهم النصوص واستنباط المعاني، وسأضرب أمثلةً على كل واحد منها إن شاء الله ليتبيّن المراد.

أ) المشترك اللفظي

يعرف الأصوليُّون المشترك اللفظي بأنه "اللفظُ الواحدُ الدالُّ على معنيين مختلفين فأكثر دلالة على السواء عند أهل تلك اللغة. وأكثر العلماء على وقوع هذا النوع في اللغة؛ " لجواز أن يقعَ إما من وَاضِعَيْنْ بأنْ

يضعَ أحدُهما لفظا لمعنى ثم يضعُه الآخرُ لمعنى آخر ويَشْتَهِر ذلك اللفظ بين الطائفتين في إفادته المعنيين، وهذا على أنَّ اللغات غيرُ توقيفية وإما مِنْ واضعٍ واحدٍ لغرض الإبهام على السامع حيثُ يكونُ التصريح سببا للمَفْسدة كما رُوي عن أبي بكر الصديق رضي الله عنه -وقد سأله رجلٌ عن النبي صلى الله عليه وسلم وقت ذهابهما إلى الغار: من هذا؟ قال: هذا رجلٌ يَهْديني السبيلَ. فقول أبي بكر: "يهديني" لفظ مشترك، يدلُّ على أكثر من معنى، فهم السائل منه أنه يريد: يدلُّني على الطريق في السفر، وقصد أبي بكر أنه ʻيهديه إلى طريق الجنة والإيمان. وهذا النوع مما يكثر استعماله في التورية كما مرَّ، وروده في القرآن يحتم على من يريد فهمه على الوجه الصحيح أن يعرف المشترك والسياق الذي وردت فيه كل كلمة حتى يعرف معناها (al-Suyūṭī, 2009, p. 260).

فمن الألفاظ المشتركة: لفظ "العين"، فجاءت في القرآن لعدة معانٍ، فجاءت بمعنى عين الإنسان في قوله تعالى سورة المائدة: ﴿... والعين بالعين ....﴾ (Quran 5: 45)، وجاءت بمعنى عين الماء الجارية: الماء. قال تعالى في سورة الغاشية: ﴿فيها عينٌ جارية﴾ (Quran 88: 12). ومن أشهر الأمثلة التي أثر فيها معنى المشترك على الحكم الشرعي لفظ "القُرْء" في قوله تعالى سورة البقرة: ﴿والمطلقات يتربَّصْن بأنفسهن ثلاثة قُرُوء ....﴾ (Quran 2: 228)، فهو مشترك بين الحَيْض والطُّهْر، فمن العرب من يُسَمِّي الحَيْضَ قُرْءًا ومنهم من يسمي الطُّهْر قُرْءًا، وهذا ولا شك مؤثر في الحكم، وقد اختلف الشافعيّة والحنفية بناء على ذلك (al-Qurṭubī, 1964, p. 113).

ب) الترادف

هذا النوع اختلف العلماء في وقوعه في اللغة فذهب بعضهم إلى وقوعه وصنفوا مصنفاتٍ في ذلك، مثل "الألفاظ المترادفة" للرمانيّ، وذهب الآخرون إلى أنَّ فروقًا بين هذه الألفاظ وإن اتحدّا في المعنى العام، وألَّفوا مصنفات في ذلك مثل "الفروق اللغوية" لأبي هلال العسكريّ، ووقوعه في القرآن اختلف فيه تبعًا لذلك. والذي يترجح -والله أعلم-أنَّ كل لفظة في القرآن لا يمكن أن تحلَّ مكانها لفظة غيرها وإن اتحدت معها في المعنى العام، وهذا باب لطيف وممتع، ومن يقرأ ما كتبه العلماء والمصنفون في هذا الباب يدرك شيئا من إعجاز القرآن البياني، ويسبح قائلا: سبحان من هذا كلامه! فعلى سبيل المثال: الفرق بين الجدث والقبر، الفرق بين البشر والإنسان، الفرق بين الرجز والرجس، الفرق بين عقيم وعاقر...الخ (al-Dūrī, n-d.).

الخاتمة

وبعد هذا العرض الموجز تبيَّن أهميَّة العلم بلغة العرب، وتوقف فهم القرآن والسنة على معرفتها والتضلُّع من علومها، وضربت لذلك أمثلة على المستويات الأربع: الصوت والبنية والتركيب والدلالة، رغبةً مني في تحفيز الدارسين وشداة العربيّة من غير الناطقين بها، الذين يدفعهم الشوق والحب لفهم كلام

ربهم سبحانه والتلذُّذِ بخطابه جلَّ في علاه، وكذلك كلام الحبيب المصطفى إلى تعلُّم العربيّة والوقوف على أسرارها وجمالياتها.

وأوصي أن يعتنى بدراسة هذه المستويات كلها، وألا يكتفى ببعضها عن بعض، فكما ظهر أثناء هذا العرض أن فهم نصوص الوحي لابد فيه من توافر هذه المستويات، ولا يمكن أن يتم الفهم إذا استبعدنا بعض هذه المستويات من الدرس اللغوي. ولا يصحُّ الاقتصار على المستوى النحويّ في تعليم اللغة، فكما ذكرت في البحث ثَمَّت مواضع كثيرة ليست في الجانب النحويّ توقف فهمُ النصِّ على معرفة المستوى الصوتي أو الصرفي أو الدلاليّ.

المراجع

al-Qur'ān al-Karīm

al-Andalusī, I. 'A. (2001). *al-Muḥarrar al-wajīz fī tafsīr al-Kitāb al-'azīz* (Vol. 1). 'A. S. 'Abd al-Shāfī Muḥammad (Taḥqīq.). Beirut: Dār al-Kutub al-'Ilmīyah.

al-Baghawī. (1983). *Sharḥ al-sunnah* (Vol. 4). S. al-Arna'ūṭ & M. Z. al-Shāwīsh (Taḥqīq.). Damascus: al-Maktab al-Islāmī.

al-Baghdādī, Kh. (1989). *al-Jāmi' li-akhlāq al-rāwī wa-ādāb al-sāmi'* (Vol. 2). M. al-Ṭaḥḥān (Taḥqīq). Riyadh: Maktabat al-Ma'ārif.

al-Bayḍāwī. (n.d.). *Anwār al-tanzīl wa-asrār al-ta'wīl: Tafsīr al-Bayḍāwī* (Vol. 5). M. 'A. R. al-Mar'ashlī (Taḥqīq.). Beirut: Dār Iḥyā' al-Turāth al-'Arabī & Mu'assasat al-Tārīkh al-'Arabī.

al-Bayhaqī. (2003). *al-Jāmi' li-shu'b al-īmān* (Vol. 3). M. A. al-Nadwī & 'A. 'A. Ḥ. Ḥamīd (Taḥqīq.). Riyadh: Maktabat al-Rushd.

al-Dūrī, M. Y. Kh. (n-d.). *Daqā'iq al-furuq al-lughawīyah fī al-bayān al-Qur'ānī*. Beirut: Dār al-Kutub al-'Ilmīyah.

al-Farāhīdī. (2008). *Kitāb al-'ayn* (Vol. 1). M. al-Makhzūmī & I. al-Samarrā'ī (Taḥqīq.). Beirut: Dār wa-Maktabat al-Hilāl.

al-Ghalāyaynī, M. (1993). *Jāmi' al-durūs al-'Arabīyah* (Vol. 1). 'A. M. Khafājah (Taḥqīq.). Beirut: al-Maktabah al-'Aṣrīyah.

al-Ḥamawī, Y. (1993). *Mu'jam al-udabā': Irshād al-arīb ilá ma'rifat al-adīb* (Vol. 3). I. 'Abbās (Taḥqīq.). Beirut: Dār al-Gharb al-Islāmī.

al-Ḥamlāwī, A. (2001). *Shadhdh al-'urf fī fann al-ṣarf*. N. 'A. R. Naṣr Allāh (Taḥqīq.). Riyadh: Maktabat al-Rushd.

al-Harwī, I. S. (1964). *Gharīb al-ḥadīth* (Vol. 1). M. 'Abd al-Ma'īd Khan (Taḥqīq.). Hyderabad Deccan: Dā'irat al-Ma'ārif al-'Uthmānīyah.

al-Harwī, A. S. (1990). *Isfār al-faṣīḥ* (Vol. 1). A. Qashāsh (Taḥqīq.). Madinah: al-Jāmi'ah al-Islāmīyah, 'Imādat al-Bahth al-'Ilmī.

Ibn Durayd. (2005). *Jamharat al-lughah* (Vol. 2). I. Shams al-Dīn (Taḥqīq.). Beirut: Dār al-Kutub al-'Ilmīyah.

Ibn Jinnī. (1990). *al-Khaṣā'iṣ* (Vol. 3). Cairo: al-Maktabah al-Miṣrīyah al-'Āmmah li-al-Kitāb.

Ibn Jinnī. (1993). *Sirr ṣinā'at al-i'rāb* (Vol. 1). Ḥ. Handāwī (Taḥqīq.). Damascus: Dār al-Qalam.

Ibn Kathīr. (1997). *Tafsīr al-Qur'ān al-ʻaẓīm* (Vol. 7). S. b. M. al-Salāmah (Taḥqīq.). Riyadh: Dār Ṭayyibah.

Ibn Qutaybah. (1423 H). *al-Shiʻr wa-al-shuʻarā'*. A. M. Shākir (Taḥqīq.). Cairo: Dār al-Ḥadīth.

Ibn al-Ṣalāḥ. (1423 H). *Maʻrifat anwāʻ ʻulūm al-ḥadīth*. ʻA. L. al-Hamīm & M. Y. al-Faḥl (Taḥqīq.). Beirut: Dār al-Kutub al-ʻIlmīyah.

al-Jurjānī, ʻA. Q. (2008). *Dalā'il al-iʻjāz*. M. M. Shākir (Taḥqīq.). Cairo: Dār al-Madanī.

al-Murādī, I. Q. (1992). *al-Janá al-dānī fī ḥurūf al-maʻānī*. F. Qabāwah & M. N. Fāḍil. Saudi Arabia: Wizārat al-Shu'ūn al-Islāmīyah wa-al-Awqāf wa-al-Daʻwah wa-al-Irshād.

al-Qurṭūbī. (1964). *al-Jāmiʻ li-aḥkām al-Qur'ān: Tafsīr al-Qurṭūbī* (Juz. 19). A. al-Bardūnī & I. Aṭfīsh (Taḥqīq.). Cairo: Dār al-Kutub al-Miṣrīyah.

Sībawayh. (1988). *al-Kitāb* (Vol. 4). ʻA. S. M. Hārūn (Taḥqīq.). Cairo: Maktabat al-Khānjī.

al-Sāmarrā'ī, F. Ṣ. (2007). *Maʻānī al-abnīyah fī al-ʻArabīyah*. Amman: Dār ʻAmmār.

al-Shanqīṭī M. M. (Ed.). (1965). *Dīwān al-Hudhalīyīn* (Vol. 3). Cairo: al-Dār al-Qawmīyah.

al-Shāṭibī. (1992). *al-Iʻtiṣām* (Vol. 2). S. ʻI. al-Hilālī (Taḥqīq.). Cairo: Dār Ibn ʻAffān.

al-Subkī. B. (2003). *ʻArūs al-afrāḥ fī sharḥ talkhīṣ al-miftāḥ* (Vol. 2). ʻA. H. Handāwī (Taḥqīq.). Beirut: al-Maktabah al-ʻAṣrīyah.

al-Suyūṭī. (n-d.). *al-Ashbāh wa-al-naẓā'ir fī al-naḥw*. ʻA. ʻA. S. Mukarram (Taḥqīq.). Beirut: Mu'assasat al-Risālah.

al-Suyūṭī. (n-d.). *al-Itqān fī ʻulūm al-Qur'ān*. M. A. F. Ibrāhīm (Taḥqīq.). Cairo: al-Hay'ah al-Miṣrīyah al-ʻĀmmah li-al-Kitāb.

al-Suyūṭī. (2009). *al-Muzhir fī ʻulūm al-lughah wa-anwāʻihā*. Amman: al-Quds li-al-Nashr wa-al-Tawzīʻ.

al-Thaʻālibī, A. M. (2002). *Fiqh al-lughah wa-sirr al-ʻArabīyah*. ʻA. R. al-Mahdī (Taḥqīq.). Beirut: Dār Iḥyā' al-Turāth al-ʻArabī.

al-Ṭūfī. S. (2013). *al-Ṣaʻqah al-ghaḍabīyah fī al-radd ʻalá munkirī al-ʻArabīyah*. M. b. Kh. al-Fāḍil (Taḥqīq.). Kuwait: Majallat al-Waʻy al-Islāmī.

ʻUḍaymah, M. ʻA. Kh. (2004). *Dirāsāt li-uslūb al-Qu'ān al-karīm* (Vol. 4). Cairo: Dār al-Ḥadīth.

ʻUmar, A. M. ʻA-Ḥ. (2003). *al-Baḥth al-lughawī ʻinda al-ʻArab*. Cairo: Ālam al-Kutub.

al-Zajjāj, A. I. (1988). *Maʻānī al-Qur'ān wa-iʻrābuh* (Vol. 2). ʻA. J. ʻAbduh Shalabī (Taḥqīq.). Beirut: ʻĀlam al-Kutub.

al-Zuḥaylī, W. (1997). *al-Fiqh al-Islāmī wa-adillatuh* (Vol. 2). Damascus: Dār al-Fikr al-Muʻāṣir.